فقه الأولويات عند بديع الزمان سعيد النورسي
أولويات الإصلاح الديني والاجتماعي نموذجاً
دراسة تحليلية موضوعية لرسائل النور

The First Principles of Fiqh in the Thought of Bediuzzaman Said Nursi: The Principles of Religious and Social Reform in the Risale-i Nur: An Analytical, Thematic Study

ABSTRACT

Aras Hame Amin 'Uthman (Research Scholar)

The Correct Understanding of Religion Depends on Knowing the principle of priorities and how to balance and choose between interests and disinterests if they contradicted. And to put the most important over the important. And the important over other things. Such Kind of Understanding Regarding The Priority of Things in The Religion Just Rely on Some Received Principles From The Holy Texts in The Both The Quran And The Sunna Which Teach Human Beings to Make The Correct Religious Decision About The Matters. Also, it Helps Them to Know The Intentions of The Religion And Religious Judgments Completely.

Looking Through The Time And Life of Said Al-Nursi, it Becomes Clear That He was at the Forefront of those who have Interested in The Issue of Religious Priorities in The Modern Era.

Al-Nursi's Experience and knowledge regarding the jurisprudence of religious Priorities As an Islamic Approach Which Stems From The Quran And The Sunna, Made Him to A Wise Man Who Deals Positively with Incidents, Realities And Developments and put appropriate and reasonable solutions to problems, needs, and challenges.

The principle of knowing priorities and working according to them, was part of Nursi's approach to Dawaa' and education and reform. And he derived the principle form both Quran and Sunna, under the light of dealing with incidents and developments and putting everything in its due place and rank. And he reemphasized through this principle that the reformative work is represented in the scholars doing what they are calling for and the educator committing to the principles he is calling for.

* * *

الملخص

الباحث: آراس حمه أمين عثمان[1]

إن الفهم الصحيح للدين يستلزم معرفة مبدأ الأولويات وكيفية الموازنة والترجيح بين المصالح والمفاسد إذا تعارضت، وبالتالي وضع كل شيء في مرتبته بالعدل من الأحكام والقيم والأعمال، وتقديم الأهم على المهم والمهم على غيره.

ويستند فقه الموازنة والأولويات إلى مجموعة من القواعد والأصول والكليات راجعة كلها إلى نصوص القرآن والسنة النبوية، حيث توجه المجتهد نحو الصواب والوجهة السليمة، وترشده في معرفة الأحكام وفهم المقاصد على كمالها.

إن بديع الزمان سعيد النورسي واحد من كبار رواد الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي عامة وفي تركيا خاصة، ويعد مشروعه التجديدي والإصلاحي امتدادًا وتكميلًا لما بدأه غيره ممن سبقوه أو عاصروه من العلماء المجددين الكبار، وبالنظر والتمعن في سيرة حياته الكريمة (رحمه الله) يتبين لنا بوضوح أن هذا الرجل كان في مقدمة المهتمين بمسألة الأولويات في العصر الحديث، كما أن خبرته وعلمه بفقه الأوليات كمنهج إسلامي نابع من القرآن والسنة، جعلته إنسانًا حكيمًا يتعامل بإيجابية مع الحوادث والوقائع والمستجدات، ويطرح حلولا مناسبة ومنطقية للمشاكل والهموم والاحتياجات والتحديات.

ومبدأ معرفة الأولويات والعمل به عند النورسي منهج في الدعوة والتبليغ والتربية والإصلاح، واستمده من القرآن الكريم والهدي النبوي، وفي ضوئه تعامل مع الحوادث والمستجدات ووضع كل شيء في مرتبته بالعدل، كما أكد من خلال هذا المبدأ أن أساس العمل الإصلاحي الناجح يتمثل في عمل العالم بعلمه، وموافقة أقوال الداعية مع أفعاله، وعدم مخالفة المربي لمباديء تربيته.

* * *

المقدمة

يستلزم الفهم الصحيح للدين معرفة مبدأ الأولويات وكيفية الموازنة والترجيح بين المصالح والمفاسد إذا تعارضت، وبالتالي وضع كل شيء في مرتبته بالعدل من الأحكام والقيم والأعمال، وتقديم الأهم على المهم والمهم على غيره.

يستند فقه الموازنة والأولويات إلى مجموعة من القواعد والأصول والكليات راجعة كلها إلى نصوص القرآن والسنة النبوية، حيث توجه المجتهد نحو الصواب والوجهة السليمة، وترشده في معرفة الأحكام وفهم المقاصد على كمالها.

وفي ظل تلك التطورات والتغيرات التي أصابت النُظُم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الواقع الإنساني المعاصر، بدأ الفقهاء والكتاب يهتمون بمسألة الأولويات ويركزون عليها أوسع مما تقدم..

وبالنظر والتمعن في سيرة بديع الزمان سعيد النورسي يتبين لنا بوضوح أن هذا الرجل كان في مقدمة المهتمين بمسألة الأولويات في العصر الحديث.

وكان النورسي عارفًا بمقاصد الشريعة ومراميها وأسرارها، وكان يراعي فقه الموازنات ومآل التصرفات، وترتيب سلم الأولويات في التربية والدعوة والتبليغ، ونجد آثار ذلك كله في رسائله (رسائل النور).

ولا شك أن مبدأ الأولويات عند النورسي منهج في الدعوة والتبليغ والتربية، وفي ضوئه يقدم الواجب على المندوب، والضروري على الحاجي، والحاجي على التحسيني، والأصل على الفرع، ويقدم ما فيه مصلحة عامة على ما فيه مصلحة خاصة، ويقدم دفع الضرر على جلب النفع، ويتحمل الضرر الأقل خطورة من أجل دفع الضرر الأكثر خطورة، ويتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام، ويخاطب الناس على قدر عقولهم ومستوياتهم من الفهم ونحو ذلك.

إن خبرة بديع الزمان بفقه الأوليات كمنهج إسلامي نابع من القرآن والسنة، جعلته إنسانًا حكيمًا يتعامل بإيجابية مع الحوادث والوقائع والمستجدات، ويطرح حلولا مناسبة ومنطقية للمشاكل والهموم والاحتياجات والتحديات.

وقد عاش النورسي في زمن ساد فيه الضعف والتراجع والمحن العالم الإسلامي، وحاول بجد وإخلاص أن يشخص الأمراض ويحدد الأسباب وبالتالي يقدم الحلول والطروحات الحكيمة لتحقيق النهوض الإسلامي من جديد، والتغيير الشامل في كافة الميادين كعالم بفقه الأولويات وقدوة في تطبيق هذا الفقه.

والنقطة المركزية التي تعد المحور الرئيس والقاعدة الثابتة للانطلاق نحو الإصلاح والتجديد عند النورسي، تتمثل في البُعدين الإيماني والإنساني، وأن أي حركة أو تقدم أو إصلاح لم ينطلق من القاعدة المذكورة، يبوء بالفشل ولا يحالفه النجاح.

فقد حدد النورسي بحنكته أولوياتٍ في تطبيق الدين وعمل عليها بجد، كما حدد أولويات في الجانب الاجتماعي وضحّى من أجلها أكبر تضحية، وبذلك أنشأ مدرسة

فقهية حديثة خاصة به في مسألة الأولويات الدينية والاجتماعية، لذا يمكن اعتبار منهج النورسي في تحديد الأولويات والعمل بها سرّ نجاح مدرسته الفكرية.

ومن هنا يأتي الباحث ليلقي الضوء على مسألة فقه الأولويات عند الأستاذ النورسي من خلال مبحثين كالتالي:

المبحث الأول: أولويات الإصلاح الديني عند النورسي، ويتضمن أربعة مطالب:

المطلب الأول: إصلاح النفس وتربيتها على الإيمان والتقوى.

المطلب الثاني: التركيز على التربية الإيمانية في الدعوة والتبليغ.

المطلب الثالث: التركيز على خطاب الوحدة والتقريب بين المذاهب والاتجاهات الإسلامية.

المطلب الرابع: تصحيح الأفكار والرد على الشبهات.

المبحث الثاني: أولويات الإصلاح الاجتماعي عند النورسي، ويتضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: إحياء الروح المعنوية لدى الفرد والمجتمع.

المطلب الثاني: الجهود المضنية لنشر روح التسامح في مقابل استعمال القوة.

المطلب الثالث: تشخيص الأمراض الاجتماعية وتحديد العلاج المناسب لها.

والخاتمة بتلخيص أهم الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث.

تمهيد

الأولوية في اللغة مصدر صناعي من أولى، وهو اسم تفضيل بمعنى أحق وأقرب، فيقال على الأول: فلان أولى من فلان بهذا الأمر، أي أحق به،[2] وعلى الثاني جاء قوله ﷺ: ''ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر''[3] أي أقرب في النسب إلى الموروث،[4] وعلى هذا فالأولوية تأتي بمعنى الأفضلية والأسبقية.

أما اصطلاحًا فقد استعملت وكثر ترادها على ألسنة دعاة الإصلاح والتجديد.

وعرفها بعضهم بأنها: ''الأعمال الشرعية التي لها حق التقديم على غيرها عند الامتثال أو عند الإنجاز''.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المصطلح المذكور كثر استعماله مركبًا لا منفردًا، أي بإضافة كلمة (الفقه) إليه، ومن هذا المنطلق عرفه القرضاوي بأنه: ''وضع كل شيء في

مرتبته بالعدل من الأحكام والقيم والأعمال، ثم يقدم الأولى فالأولى، بناء على معايير شرعية صحيحة، يهدي إليها نور الوحي، ونور العقل".[5]

ومع أن مصطلح الأولوية أو فقه الأولويات لم يكن متداولًا على ألسنة المتقدمين من الفقهاء والأصوليين، إلا أن معناه ومقصوده كان موجودًا عندهم، بل رسموا أصوله وضوابطه في مباحث الاستحسان والمصلحة المرسلة وسد الذرائع ونحوها من مباحث أصول الفقه، إضافة إلى قيامهم بصياغة قواعد فقهية في الترجيح والمقارنة بين المصالح والمفاسد، وقواعد في اعتبار المآلات وترك المباح أو تقييده.[6]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة، كما يعرف الخيرات الواقعة، ومراتبها في الكتاب والسنة، فيفرق "بين" أحكام الأمور الواقعة الكائنة، والتي يراد إيقاعها في الكتاب والسنة، ليقدم ما هو أكثر خيراً وأقل شراً على ما هو دونه، ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما، فإن من لم يعرف الواقع في الخلق، والواجب في الدين: لم يعرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح).[7]

وتوظيف الأستاذ النورسي لهذا المصطلح يدلّ على أنّه كان فقيهًا أصوليًا محققًا عالمًا بالقرآن والسنة، عارفًا باجتهادات السابقين وتحقيقاتهم وخلافاتهم، إضافة إلى معرفته التامة بحوادث عصره وما يدور في واقعه الملموس، وما يأمله من المستقبل المنشود، ومن هذا المنطلق هداه الله سبحانه وتعالى بفضله إلى التمكن من تحديد الأولويات، التي أنار بها دربه لتحقيق أهدافه في سبيل الإصلاح الديني والاجتماعي في زمانه، إذ نال من خلال التركيز على هذه الأولويات شرف إعادة الروح الإسلامية الحقيقية والثبات على القيم والمبادئ المقدسة للأمة الإسلامية جمعاء وبالإخص الشعب التركي المجاهد، ولم يقتصر تأثير أفكاره في هذا المجال على زمانه، بل يمكن أن يستفيد منها الأجيال المتلاحقة لتصحيح مسار الدعوة الإسلامية المباركة وتحقيق الأمن والسعادة للمجتمع دون توقف.

"العلماء ورثة الأنبياء" كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الشريف،[8] والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالدعوة إلى صلاح الدين وإصلاح المجتمع، لذا فالنورسي كان عالماً ومصلحاً بمعنى الكلمة وكان النورسي أعرف الناس بما يجب عليه من دعوة وجهاد في سبيل صلاح عقيدة الناس وإصلاح سبل عيشهم، لذا يحاول الباحث تسليط الضوء على أهم ما قام به الأستاذ من الإصلاحات في الجانب الديني والاجتماعي من

خلال تحديد بعض الأولويات التي قدمها على غيرها من الأمور في كلا الجانبين، والسير على هذا المنهج القويم للنهوض بالأمة الإسلامية والرقي بها من أجل جلب سعادة الدنيا وفلاح الآخرة، فهو ''رحمه الله'' مثلاً قدم إصلاح نفسه أولاً وتربيتها على الإيمان والتقوى وكسب العلم والمعرفة، على تقديم النصيحة للناس وإلقاء الخطب والمحاضرات عليهم، لأن ذلك أكثر فعالية، وهي أُولى خطوات القدوة الحسنة، كما قدم الأخوة الإيمانية على الخلافات البشرية، فهو حين اهتم بنشر الأخوة بين الناس وحثّ على التركيز على المشتركات، لم يغفل خطورة الشيطان ومدى قوته في بثّ الفتنة بين البشر ونشر الفرقة والفساد بينهم، ودعى بجد إلى ترك الخلافات العرقية والمذهبية والطائفية التي رأى أنها السبب الرئيسي في التخلف والرجعية.

ويتطلب الحديث عن هذه الأوليات كلاً على حدة تقسيم البحث إلى مبحثين أساسيين كما يلي:

المبحث الأول: أولويات الإصلاح الديني عند النورسي، ويتضمن أربعة مطالب:

المطلب الأول: إصلاح النفس وتربيتها على الإيمان والتقوى

يُعد إصلاح النفس وتربيتها على التقوى وتنقيتها من الشوائب بداية كل خير وكل عمل إصلاحي عند النورسي، وبهذا الصدد قال: (فالتقوى هي ترك المحظور والاجتناب عن الذنوب والسيئات، والعمل الصالح هو فعل المأمور لكسب الخيرات، ففي هذا الوقت الذي يتسم بالدمار –الأخلاقي والروحي- وبإثارة هوى النفس الأمارة، وبإطلاق الشهوات من عقالها، تصبح التقوى أساسا عظيما جدا بل ركيزة الأسس، وتكسب أفضلية عظيمة حيث إنها دفع للمفاسد وترك للكبائر، إذ إن ''درء المفاسد أولى من جلب المصالح'' قاعدة مطردة في كل وقت) .[9]

بدأ النورسي من هذه النقطة بإصلاح نفسه أولاً، حيث كان يقيم الصلاة ويلتزم مجالس العلماء منذ صغره وينشغل بكسب العلم بدل الإنشغال بالهموم الدنيوية، ويشهد له جميع من عاصروه ورأوه -خاصة طلابه- بالتقوى والأخلاق الرفيعة، ولأنه كان متيقنا بأن الصلاة مفتاح باب التقوى وراحة للنفس في كل وقت وحين، لم يتركها حتى في أحلك الأوقات وأصعب الظروف، في الأسر والسجن وأثناء نفيه المستمر ونقله إلى منفاه برا وبحرا وجوا،[10] وفي المرض والهرم حتى وفاته ''رحمه الله''.

إن المرشد هو الذي يسعى إلى إصلاح الناس ويكون قدوة لهم، ويتصف بأوصاف الإيمان والعلم والتقوى والعمل والشخصية المتوازنة، ولا يكون لقوله أثر في النفوس

إلا أن يكون مرشدا بالقول والعمل، وإلا فعمله يكذب قوله ويفقد الناس ثقتهم به، فينكث غزله بالنقائض ولا يصلح حال قوم يشهدون في المرشد نقض القول بالفعل، بل لا مفر من فسادهم.[11]

فالنورسي كان مرشداً بالقول والفعل، ويعلم نفسه في رسائله أولاً وينقيها قبل أن يطلب الآخرين بذلك، ويؤكد أنه يرى نفسه محتاجاً إلى النصح أكثر من غيره مشيراً إلى حقيقة جوهرية بقوله:[12] ''ما دامت نفسي التي بين جنبيّ أمارةٌ بالسوء فلابد أن أبدأ بها أولاً، لأن من عجز عن إصلاح نفسه فهو عن غيرها أعجز)،[13] ويخاطب نفسه قائلاً: (إن الحقائق الإيمانية التي كتبتها، خاطبت بها نفسي مباشرة، ولا أدعو إليها الناس جميعاً، بل الذين أرواحهم محتاجة وقلوبهم مجروحة يتحرون عن تلك الأدوية القرآنية، فيجدونها''.[14]

إن أسلوب مخاطبة النفس الوارد في رسائل النور من أقوى الأساليب التربوية الدالّة على حرص مؤلفه على تقديم إصلاح نفسه وتنقيتها قبل طلبه ذلك من الآخرين، وهو سر تأثيرها العميق على جميع الجوارح، وسر القوة الفائقة الكامنة في معانيها ومراميها، لأن المؤلف لم يكتب شيئاً إلا وهو مقتنع به تمام الاقتناع، بل شهده شهود قلب، وعانى منه معاناة حقيقية عميقة، فهي ليست نقولاً من مصادر، ولا هي تصور فكري فحسب:[15] (ان رسائل النور تحاول اولاً اقناع نفس مؤلفها ثم تخاطب الآخرين؛ لذا فالدرس الذي أقنع نفس المؤلف الأمارة بالسوء إقناعاً كافياً و تمكّن من إزالة وساوسها وشبهاتها إزالة تامة، لهو درس قوي بلاشك، وخالص أيضا بحيث يتمكن وحده من أن يصد تيار الضلالة الحاضرة التي اتخذت شخصية معنوية رهيبة – بتشكيلاتها الجماعية المنظمة– بل أن يجابهها و يتغلب عليها).[16]

ولا شك أن أسلوب مخاطبة النفس هذه له وقع كبير على القارئ ويؤثر فيه حين قراءته لها كما لو أنه ليس قارئا فقط، بل يشعر بأنه كاتب الرسائل وهو المتكلم مع نفسه الذي يسأل ويجيب.

ومن أمثلة إصلاح النفس والأخلاق الرفيعة لدى النورسي، تركه لشهوات الدنيا الفانية وعزة نفسه وعدم قبوله للمساعدات المادية ورفضه للمكافئات المالية والهدايا من أي أحد كان حتى من السلطان، فعندما استدعي إلى وزارة الداخلية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني عرض عليه وزير الداخلية قائلا: (السلطان يخصك بالسلام مع مرتب بمبلغ ألف قرش وعندما تعود إلى بلدك سيجعل مرتبك ثلاثين ليرة كما أرسل لك ثمانين ليرة هدية سلطانية لك، فأجابه بديع الزمان: لم أكن أبدا متسول

مرتب، ولن أقبله ولو كان ألف ليرة لأنني لم آت لغرض شخصي، وإنما لمصلحة البلد، فما تعرضون علي ليس سوى رشوة السكوت).[17]

ويفهم من ذلك أن الشخص الذي يريد أن يكون قدوة لغيره ويستمع إليه الناس ويأخذوا بنصائحه ويترك أثرا إيجابيا في نفوسهم ليقبلوا به وبأفكاره وطروحاته، يجب أن يبدأ الإصلاح من نفسه ويصلح ما بداخله، ويترك هوى النفس ويتغلب على الأمراض النفسية الكامنة فيها كالتكبر والطمع والحسد والبخل والأنانية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾،البقرة:٤٤ ويقول أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾.الصَّف:٢-٣

وهذا الأصل موجود في السيرة العطرة لنبي الهدى محمد ﷺ، حيث كان -حتى قبل بعثته- قدوة حسنة للناس في الأخلاق والمعاملة، وبعد بعثته كذلك اتخذه الناس أسوة حسنة لهم في الإيمان والإخلاص والتقوى والجهاد، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾.الأحزاب:٢١

ومن المعروف أن النفس البشرية بطبيعتها، ينصت إلى شخص يكون مثالاً لحسن الخلق وقدوة في حسن المعاملة، وتأثير الناصح لا يظهر إلا إذا حقق في نفسه ما يريد تحقيقه في الآخرين، لذلك نجد في زماننا هذا كثيرا من الذين يسمون بـ''الدعاة والوعاظ'' ويدعون الناس إلى الإسلام وينصحون المسلمين بالإلتزام بالإسلام، إلا أنهم يعانون من مشكلة ''كثرة الأقوال وقلة الأفعال''، فأحياناً يفعلون ما ينهون الناس عنه، ويغفلون ما يأمرون الناس به، وأحياناً أخرى ينحني بعضهم أمام المطامع الدنيوية والشهوات الفانية فيرجع عليهم فعلهم هذا وعلى دينهم أولاً، بالسلبية، ويُقل ويضعف تأثيرهم شيئاً فشيئاً، فكم من واعظ وخطيب وعالم وداعية باع دينه بدنياه، وأُغري بالسلطة والمال والبنين والأزواج، وتعاني الأمة الإسلامية بسببهم في جميع أرجاء العالم.

المطلب الثاني: التركيز على التربية الإيمانية في الدعوة والتبليغ

إن تهيئة النفس الإنسانية من الناحية الإيمانية وتربيتها من الناحية الروحية أيضاً، هي الطريقة المثلى للدفع بها نحو القيام بالعمل الإيجابي، ويكون ذلك بالتوجه إلى ترسيخ عقيدة الإيمان بالله ووحدانيته.

وقد أراد بديع الزمان بلوغ هذا المقصد بالحديث عن الانتساب الإيماني وأهميته أولاً، إذ يمكن القول بأن نقطة البداية لدروس التربية والإصلاح الديني في رسائل النور هي ''الانتساب الإيماني''.

ويقصد بالانتساب الإيماني عند النورسي: ''الانخراط الوجداني في سلك العبودية لله إيمانا وعملا، بما يحقق للإنسان معنى الإضافة إلى الله في صفة ''عبد الله''.[18]

فمن انتسب إلى العبودية وجد نفسه وعرف قدره ومكانته، وعلى العكس من ذلك الذي لا ينتسب إلى العبودية مثله مثل التائه الضال الفاقد للهدف والغاية، (فما دمت قد ظفرت بنقطة استناد مثل هذه بهوية الانتساب الايماني، فيمكنك الاستناد والاطمئنان اذاً إلى قوة عظيمة وقدرة مطلقة. وحقاً لقد كنت أحسّ بقوة معنوية عظيمة كلما كنت أتلقى ذلك الدرس من تلك الآية الكريمة، فكنت أشعر أنني أملك قوة يمكنني أن اتحدّى بها جميع أعدائي في العالم وليس الماثلين أمامي وحدهم، لذا رددتُ من أعماق روحي: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.[19]

والانتساب الإيماني يجعل العبد لا ينظر إلى الأعمال الإيجابية من زاوية صعوبتها مهما كبرت، لأن المنتسب الحقيقي يفكر في قوة وعظمة من انتسب إليه، وبذلك يهون عليه أكبر وأصعب الأمور، ولتوضيح أكثر هنا يورد النورسي مثالا ويقول: ''اذا انتسب أحدٌ إلى السلطان بالجندية او بالوظيفة الحكومية، فإنه يتمكن أن ينجز من الأمور والأعمال اضعاف اضعاف ما يمكنه إنجازه بقدرته الشخصية، وذلك بقوة ذلك الانتساب السلطاني''.[20]

ثم يأتي دور الحديث عن مسألة بقاء الإنسان (الخلود)، وللبقاء مفهومه الخاص عنده،[21] حيث يقول: ''فالإنسان الذي تاه في كثرة المخلوقات وغرق في الكائنات، وأخذ حب الدنيا بلبّه حتى غره تبسم الفانيات وسقط في أحضانها، لاشك أن هذا الإنسان يخسر خسراناً مبيناً، اذ يقع في الضلال والفناء والعدم، أي يعدم نفسه معنى. ولكن اذا ما رفع هذا الإنسان رأسه واستمع بقلب شهيد لدروس الايمان من لسان القرآن، وتوجّه إلى الوحدانية فانه يستطيع أن يصعد بمعراج العبادة إلى عرش الكمالات والفضائل فيغدو انساناً باقياً''.[22]

وفي هذا السياق أيضا يكشف بديع الزمان في نكتة جميلة ومعبرة عن سرّ قناعة المسلم وتيقنه في وجود عالم البقاء الأزلي بعد الحياة الدنيا، وقناعة الملحد وشكّه في فنائه المطلق بعد الحياة الدنيا، ويرجع سبب ذلك إلى مسألة القرب والبعد عن الإله الخالق، فالمسلم يتقرب إلى خالقه بالطاعة والعبادة والامتثال لأوامره وذلك يكسبه

اليقين والاطمئنان، أما الملحد فبعصيانه وكفره يبتعد خطوةً بعد خطوة عن خالقه، وذلك يكسبه الشك والقلق الدائم وعدم الرغبة في الموت لأنه يعتبره عدماً وفناءاً له، فيقول: ‘‘إن الحق سبحانه بكمال كرمه أدمج قسماً من مكافاة الخدمة في نفس الخدمة، وأدرج أجرة العمل في نفس العمل. حتى أن الموجودات ولو الجمادات تمتثل أوامره التكوينية بكمال الشوق والتلذذ، وبالامتثال تصير معاكَس تجليات أسماء نور الانوار. كالحباب الحقير المظلم الذي يتوجه بقلبه الصافي إلى الشمس، فيتنور مبتسماً في وجهك، بجعل قلبه سرير الشمس. وكيف لاتلتذ الذراتُ ومركباتها -بفرض شعورٍ فيها- بمظهريتها لتجليات أسماء ذي الجلال والجمال والكمال المطلق مع ارتقائها بالامتثال، مثل الحباب من نهاية الخمود والظلمة إلى نهاية الظهور والنور!.. انظر إلى حواسك وأعضائك وخدَمتها التي تخدم لبقاء الشخص أو النوع كيف تتلذذ بنفس خدمتها حتى يكون التَركُ عذاباً لها‘‘.[23]

إذن فكيف يمكن للقريب الحقيقي من خالقه أن يترك الأعمال الفاضلة ويأتي عكسها، وكيف يمكن للبعيد الحقيقي من الخالق أن يأتي الأعمال الفاضلة ويترك عكسها؟

ويجعل النورسي من حاجات الإنسان ونواقصه وفقره أيضا مدخلا للقناعة وترسيخ عقيدة الإيمان بالله، ويفهم الإنسان بأن سيره إلى ربه يكون من خلال تكملة تلك النواقص والحاجات بالتوبة والتوكل والشكر والمحبة،[24] فيقول: ‘‘إن الله سبحانه يجعل ما ألبسه الإنسان من لباس الوجود دليلا على صنعته المبدعة، حيث خلقه على صورة نموذج موديل يفصّل عليه لباس الوجود، يبدله ويقصه ويغيره مبيناً بهذا التصرف تجليات مختلفة لاسمائه الحسنى. فمثلما يستدعي اسم الشافي المرض، فان اسم الرزاق ايضاً يقتضي الجوع‘‘.[25]

وحاول بديع الزمان ترسيخ الاعتقاد لدى الناس بأن الإيمان هو الذي يجعل الإنسان يفكر إيجابيا ويوجد به الأنس والأخوة الكونية والنشاط في أداء مهمة الحياة، وكذا يجعله يفرح عند نهاية حياته بموته التي يعدها موعدا للتسريح من التكليف وتحمل الأمانة إلى السعادة الأبدية في عالم البقاء السامي، وبعكس ذلك، الكفر -الذي هو طمس للحقائق ودخول في ظلام دامس وعمى عن الحقيقة الكونية للإنسان- يجعله لا يفكر إلا سلبيا، ولا يرى بسبب ذلك من الكائنات إلا ما يهدده ويفزعه ويرعبه، فيدخل في صراع خاسر مع كل شئ حتى مع نفسه،[26] حيث يقول: ‘‘إن الكفر والضلال يريان الكون لأهلهما أنّه ملئ بآلاف الأعداء المخيفين، بل هو سلسلة

من طوائف تعادي الإنسان، ابتداءً من المنظومة الشمسية وانتهاء إلى ميكروبات التدرن الرئوي، كلها تعادي هذا الإنسان المسكين بأيدي القوى العمياء والمصادفة العشواء والطبيعة الصماء. حتى تجعله في رعب دائم وألم مقيم وهلع ملازم واضطراب مستمر''.[27]

أما العبودية بمعناه الشرعي في الإسلام عند النورسي أساس التربية الخلقية، حيث إن هذه التربية تجمع بين نقيضين ''الذلة والعزة''، ذلك أن الذلة لله الواحد القهار تورث العبد عزة، فيعز بالانتساب إلى الله، ويتخلق بأخلاق القرآن ويكون فردا نافعا للمجتمع،[28] فيقول رحمه الله: ''للوصول إلى مدى الفرق بين التربية الاخلاقية التي يربي بها القرآن الكريم تلاميذه، والدرس الذي تلقنه حكمة الفلسفة، نرى أن نضع تلميذيهما في الموازنة: فالتلميذ المخلص للفلسفة 'فرعون' ولكنه فرعون ذليل، اذ يعبد أخس شئ لأجل منفعته، ويتخذ كل ما ينفعه رباً له. ثم أن ذلك التلميذ الجاحد 'متمرد وعنود' ولكنه متمرد مسكين يرضى لنفسه منتهى الذل في سبيل الحصول على لذة (...) بينما تلميذ القرآن المخلص هو 'عبد' ولكنه عبد عزيز لا يستذل لشئ حتى لأعظم مخلوق، ولا يرضى حتى بالجنة، تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله. ثم أنه تلميذ 'متواضع، ليّن هيّن' ولكنه لا يتذلل بارادته لغير فاطره الجليل ولغير أمره وإذنه. ثم أنه ''فقير وضعيف'' موقن بفقره وضعفه، ولكنه مستغنٍ عن كل شئ بما ادخره له مالكُه الكريم من خزائن لا تنفد في الآخرة. وهو 'قويٌ' لاستناده إلى قوة سيده المطلقة. ثم أنه لا يعمل إلاّ لوجه الله، بل لا يسعى إلاّ ضمن رضاه بلوغاً إلى الفضائل ونشرها''.[29]

وقد فهم بديع الزمان أن صلاح الناس مرتبط بإيمانهم، فبعدهم عن خالقهم ورازقهم لا يكسبهم إلا الشقاء، وإذا أرادوا السعادة في دنياهم وآخرتهم تقربوا من إلههم بإخلاص العبودية له وبتنزيهه عن الشرك، لأن الإيمان بالله وخشيته هو الذي يدفع بالإنسان إلى تقديم الخير لبيئته ويجلب السلام لمجتمعه، أو على أقل تقدير، لا يقدم على ارتكاب الجرائم التي تخل بأمن وسلامة مجتمعه.

ومسألة الانتساب الإيماني محسومة في القرآن والسنة قبل كل شيء، وهي ما جاءت الشريعة من أجله، فقد أكد القرآن الكريم مرارا وتكرارا على ضرورة توكل المسلم على ربه وتنقية إيمانه من شوائب الشبهات الشيطانية، فكثرة آيات التوحيد في القرآن خير شاهد على ذلك، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾،الزمر:٦٥ كما بين الرسول الأكرم ﷺ سعة الإيمان، فقد روي

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ''الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ''.[30]

المطلب الثالث: التركيز على خطاب الوحدة والتقريب بين المذاهب والاتجاهات الإسلامية

من الخطوات المهمة والوقفات البارزة في حياة النورسي وفي مؤلفاته هي جهوده القيمة في مجال نشر التوعية الدينية لدى المسلمين، وقد شملت هذه؛ جهوده في مجال التقريب بين المدارس الفكرية والأخوة بين المذاهب الإسلامية ودفع المسلمين للتقدم وحثهم على التفكير كوسيلة تربوية وغاية تعبدية، وبناء خطاب تجديدي لكل الأمة، وقصد أن يدخل جميع الناس على اختلاف آرائهم في مراد خطابه، ولم يكن له قصد إنشاء طريقة تجمع عددا من المريدين.[31]

كانت نظرة بديع الزمان إلى سائر المناهج الإصلاحية في الإسلام مبنيا على مدى نجاعتها بالنسبة لحال الزمان وأهله، فمثلا بالنسبة للطريقة الصوفية التي كان يعتبرها منهجا إصلاحيا وتربويا، وفي نفس الوقت لم يكن يرى فيها المنهج الأمثل للإصلاح، حاول إقناع الناس برأيه هذا بأسلوب قل نظيره في التاريخ الإسلامي، حيث خرج بمعادلات تربوية ذات بعد منهجي متوازن تدل على قبوله لمنهج التصوف من جهة، وتجاوزه له من جهة ثانية.[32] حيث يقول: ''نعم، لا يمكن دخول الجنة من دون ايمان، بينما يدخلها الكثيرون جداً دون تصوف. فالإنسان لا يمكن ان يعيش دون خبز، بينما يمكنه العيش دون فاكهة. فالتصوف فاكهة والحقائق الاسلامية خبز''.[33]

لقد استطاع النورسي بحنكته وحكمته التي وهبها الله له بلوغ مستوى عال من العلم والمعرفة خلال مدة وجيزة من عمره المبارك، فرغم أنه بدأ بدراسة العلوم الشرعية عند كبار علماء الصوفية وتتلمذ على أيديهم وقرأ كثيرا من مؤلفاتهم، إلا أن كثرة اطلاعاته وسعة آفاقه المعرفية جعلته يكتشف مسلكا معرفيا جديدا يسير عليه وحوّلته إلى ما سمّى به نفسه ''سعيد الجديد'' وسار عليه مع التوفيق بينه وبين المسلك القديم الذي تتلمذ عليه عند علماء الصوفيه والذي سمى فيه نفسه بـ''سعيد القديم''، ولم ينتج بهذا المسلك طريقة صوفية جديدة وإنما صار بما سلكه من منهج قرآني شأنا آخر، وقد انطلق العمل الإيجابي عنده من هذا المنهج الذي يرفض الاستهانة بالمسلك الذي تربى عليه ويكن له احتراما وتقديرا بالغا،[34] حيث نجده يقول: ''إن غاية ''الطريقة'' وهدفها هو معرفة الحقائق الايمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في

ظل المعراج الاحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود. فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع وكمال بشري سام''.[35]

ومع أنه لم يسجل قطيعة معرفية مع الفكر الصوفي إلا أن ملاحظاته على بعض المفاهيم والمعتقدات الصوفية بالغة الدقة والقوة، ولم يكن انتقاداته لهم نقداً هداماً نابعاً من الغضب والكراهية، بل كان هدفه النقد البنّاء واقناع المخالفين له بنصائحه، لهذا تبنى أسلوب الدفاع دون الهجوم مع الذين اعترضوا على آرائه ومواقفه من علماء الدين وشيوخ المتصوفة، حيث ركز على تبيان صوابية وجهة نظر رسائل النور، بل ويستقطب عاطفتهم ويهدئ غضبهم حين يذكر معترضيه بأنهم أصحاب الحق،[36] فيرشد طلاب النور قائلا: ''على طلبة النور حسب الأسس المذكورة: ألاّ يواجهوا المعارضين بالحدة والتهور، ولا يقابلوهم بالمثل. بل عليهم أن يكتفوا بالدفاع عن أنفسهم فحسب، مع إظهار روح المصالحة، والإجابة بوضوح عن نقاط الاعتراض، حيث إن الأنانية في عصرنا هذا قد تطاولت واشرأبت بعنقها حتى أصبح كل شخص لا يريد أن يذيب أنانيته -التي هي كقطعة ثلج بطول قامته- ولا يرغب في تغييرها بل يسوّغ لنفسه ويراها معذورة دائماً. وها هنا ينشأ النزاع والخصومة ويكون موضع استفادة أهل الباطل والضلال على حساب أصحاب الحق واهله''.[37]

ولعل من ألطف الثمرات التي قدمتها مدرسة رسائل النور أنها وحدت بين وجهات النظر المختلفة لأصول الدراسة والتفكير بين المدرستين العقلية ''الفقهية'' والقلبية ''الصوفية'' وأزالت ما بينهما من المناقشات والخلافات الظاهرة التي أعاقت التقدم والمضي في تبليغ الإسلام، فوق سعيها الحثيث في تمكين الوحدة بين صفوف أهل الإيمان، حيث إنها تقنع عقول أهل هذا العصر حتى تحقق لدى أصحاب العقول النيرة: أن ما أنتجه هذا العصر من التفرقة لا تلم شملها إلا رسائل النور.[38]

حاول النورسي جاهدا توعية المسلمين وإفهامهم أنه شخصيا ليس مرجعا لهم كمراجع بعض الطرق والمذاهب، بل أكد على أن المرجع الوحيد لفكره ومدرسته في حياته وبعد وفاته هي فقط رسائل النور، حيث كان يقول: ''إن قراءة رسائل النور أفضل مائة مرة من الحديث معي''.[39]

ويرى الباحث أنه ''رحمه الله'' بعد وفاته شاء الله له أن لا يعرف أحدٌ قبره –مع أن نقل قبره من مثواه الأخير ''أورفة'' و إخفائه كان بأمر من السلطات التركية آنذاك وأمراً سياسياً مقصوداً- لكي لا يكون مزاراً للناس وينشغلوا به بدل الانشغال بما تركه من بعده من ثروة علمية وآثار تربوية، وكأنه تحقيقٌ لما يفهم من مضامين رسائله ونصائحه

لطلابه ولمن يقرأون رسائله من بعده: ''لا تنظروا إليّ ولا تعجبوا بي، بل انظروا إلى ما كتبت واعملوا به''.

ويوظِّف النورسي التفكر كوسيلة تربوية وغاية تعبدية ويقدمه بديلا قرآنيا عن الأوراد الصوفية رغبة منه في الاستجابة لتحديات العصر الجديدة،[40] قائلا: ''للوصول إلى الله سبحانه وتعإلى طرائق كثيرة، وسبل عديدة. ومورد جميع الطرق الحقة ومنهل السبل الصائبة هو القرآن الكريم. إلا أن بعض هذه الطرق أقرب من بعض وأسلم وأعم. وقد استفدت من فيض القرآن الكريم بالرغم من فهمي القاصر طريقاً قصيراً وسبيلاً سوياً هو: طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر. (...) والتفكر ايضاً كالعشق الا أنه أغنى منه وأسطع نوراً وأرحب سبيلاً، إذ هو يوصل السالك إلى اسم الله ''الحكيم''. وهذا الطريق يختلف عما سلكه أهل السلوك في طرق الخفاء -ذات الخطوات العشر كاللطائف العشر- وفي طرق الجهر -ذات الخطوات السبع حسب النفوس السبعة- فهذا الطريق عبارة عن أربع خطوات فحسب، وهو حقيقة شرعية اكثر مما هو طريقة صوفية''.[41]

وبهذا يصبح التفكر التعبدي في فكر النورسي إحدى الأساسيات في نشر الوعي الديني لدى المسلمين ويعده ضرورة من الضروريات للنهوض بالأمة الإسلامية، إذ يبدأ بالحديث عن التفكر من أصغر نقطة مثلا -عندما يأكل الإنسان، عليه التفكر بمصادر الطعام ليكون عبدا شاكرا لأنعم الله- إلى أكبر نقطة وهي التفكر في خلق الله ليكون عبدا موحدا، ومفتاح التفكر عنده هو ''بسم الله''، فيسأل قائلا: ''إننا نبدي احتراماً وتوقيراً لمن يكون سبباً لنعمة علينا، فيا ترى ماذا يطلب منا ربُّنا الله صاحب تلك النعم كلها ومالكها الحقيقي؟ الجواب: أن ذلك المنعم الحقيقي يطلب منا ثلاثة أمور ثمناً لتلك النعم الغالية: الأول: الذكر... الثاني: الشكر... الثالث: الفكر.. فـ ''بسم الله'' بدءاً هي ذكرٌ، و ''الحمد لله'' ختاماً هي شكرٌ، وما يتوسطهما هو ''فكر'' أي التأمل في هذه النعم البديعة، والإدراك بأنها معجزة قدرة الأحد الصمد وهدايا رحمته الواسعة... فهذا التأمل هو الفكر''.[42]

نعم قد بين القرآن الكريم أهمية التفكر وحث العباد بشكل عام على إعمال العقل دائما والتفكر في أمور الدنيا والآخرة والتدبر فيها من خلال ملكة العقل التي وهبهم الله، لهذا قال النورسي: (وقد استفدت من فيض القرآن الكريم)، وكثرة آيات القرآن على الأمر بالتفكر والتعقل شاهد على أهمية التفكر في الشريعة الإسلامية، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾،البقرة:٧٣ وقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ

لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾البقرة:٢٦٦ وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾،آل عمران:١٩٠-١٩١ ''ثم إن أوائل أكثر الآيات القرآنية وخواتمها، تحيل الإنسان إلى العقل قائلة: راجع عقلك وفكرك ايها الإنسان وشاورهما، حتى يتبين لك صدق هذه الحقيقة. فانظروا مثلاً إلى قوله تعالى: 'فاعلموا.. فاعلم... أفلا يعقلون... أفلم ينظروا... أفلا يتذكرون.. أفلا يتدبرون... فاعتبروا يا أولى الأبصار...' وأمثالها من الآيات التي تخاطب العقل البشري. فهي تسأل: لِمَ تتركون العلم وتختارون طريق الجهل؟ لِمَ تعصُبون عيونَكم وتتعامَوْن عن رؤية الحق؟ ما الذي حملكم على الجنون وانتم عقلاء؟ أي شئ منعكم من التفكر والتدبّر في احداث الحياة، فلا تعتبرون ولاتهتدون إلى الطريق المستقيم؟ لماذا لا تتأملون ولا تحكّمون عقولكم لئلا تضلوا؟''.[43]

المطلب الرابع: تصحيح الأفكار والرد على الشبهات

لقد وجد بديع الزمان نفسه في عصر كثرت فيه الأمراض الفكرية التي كانت تعاني منها الأمة الإسلامية، وخاصة الشبهات والأفكار المنحرفة عند العامّة، ففي هذا الوقت الذي إشتدت فيه خطر الشبهات والانحرافات، كان المسلمون منشغلون بالخلافات المذهبية والعقدية التي تعمقت وانتشرت في كافة المجالات والعلوم من الخلاف على أكبر مسألة عقدية إلى أبسط مسألة لغوية ونحوية.

أعطى النورسي الأولوية -كطبيب لمعالجة تلك الأمراض- لمواجهة تلك الأفكار، وحرص على تطهير عقيدة التوحيد لدى الناس من الشبهات والأوهام وترسيخ ثوابت التوحيد الحقة من خلال طرح أفكار جديدة وعصرية موافقة للقرآن والسنة، وعدم الانشغال بالخلافات الموجودة التي ترجع جذورها إلى عصر الصحابة وما بعدهم، وتحقق لديه أن الانشغال بتجديد تلك الخلافات لا توصل إلى نتائج بل تؤدي إلى تأخر الأمة الإسلامية في جميع نواحي الحياة أكثر فأكثر.

وفي جانب آخر يذهب بديع الزمان إلى أن الاتجاهات الموجودة في الفكر الإسلامي لا توصل إلى الحقيقة والهدف المنشود، لهذا التزم مسلك القرآن الكريم لحل الخلافات وتصحيح الانحرافات الفكرية والوصول إلى ''التوحيد الحقيقي''، إذ أن هذا المسلك يعرض الكون المنظور للعين والعقل والقلب، وتدل العبد وتقوده إلى المعرفة الإلهية، ويرى النورسي أن ما سوى هذا المنهج غير مصون من الشبهات

والأوهام، وربما يوقع صاحبه في الضلالات،[44] قال رحمه الله: ''إن أصول العروج إلى عرش الكمالات وهو معرفة الله جلّ جلاله أربعة: اوله: منهاج علماء الصوفية، المؤسس على تزكية النفس والسلوك الاشراقي. ثانيه: طريق علماء الكلام المبني على الحدوث والإمكان. ثالثه: مسلك الفلاسفة. هذه الثلاثة ليست مصونة من الشبهات والأوهام. رابعه: المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه وأقربه إلى الله وأشمله لبني الإنسان''.[45]

وعندما يبدأ بديع الزمان بتصحيح بعض المعتقدات، فإنه يتبنى منهجا يمكن تسميته بـ''التصحيح الإيجابي للمعتقد الخاطئ''، لأنه يتبع فيه الأسلوب القرآني في عرض الحقيقة، ولا يلجأ إلى استخدام أساليب التجريح والسب والشتم والإهانة والتقليل من شأن المخالف، لما فيها من آثار سلبية وإصرار صاحب الاعتقاد الخاطئ على معتقده واستمرار المعاند على عناده، بل يوجه الانتقادات إلى تلك الأفكار ويبطلها دون إشعار أصحابها بالإهانة والتقليل من شأنهم، فمثلا في مقابل القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود، يقول: ''إن أهل 'وحدة الوجود' توهموا الكائنات عدماً، فقالوا: 'لا موجود إلا هو' لأجل الوصول إلى الاطمئنان والحضور القلبي. وكذا أهل 'وحدة الشهود' حيث سجنوا الكائنات في سجن النسيان فقالوا: 'لا مشهود إلا هو' للوصول إلى الاطمئنان القلبي''،[46] ويطرح هذا البديل الذي لا يمكن لأحد رده أو إنكاره تحت أية حجة أو ذريعة، لأنه يتبع طريق القرآن لمعرفة الخالق، و(إن هذا الطريق أسلم من غيره، لأن ليس للنفس فيه شطحات أو ادعاءات فوق طاقتها، إذ المرء لا يجد في نفسه غير العجز والفقر والتقصير كي يتجاوز حده. ثم إن هذا الطريق طريق عام وجادة كبرى، لانه لا يضطر إلى إعدام الكائنات ولا إلى سجنها''.[47]

لقد سار النورسي على درب القرآن أيضاً في الرد على الشبهات، حيث أثبت قصدية الكون ورفض قبول كلية الكون للانقسام، فهو ''رحمه الله'' أدرك بتفكيره العميق ما لهذه الكائنات من دلالات ربانية وما لرموزها من معان خطابية، فرفض أن يكون هذا النظام الدقيق والمتشابك، مجرد صدفة عمياء، أما رفضه لقبول كلية الكون للانقسام فجاء من قناعته بعدم قبول المصدرية المتعددة، إذ حقيقة الانقسام عنده هي بمعنى تدخل الأيدي المتعددة في الخلق، فيرجع كل مخلوق إلى خالقه المفترض، فيكون لكل خلق طابع مختلف ومتناقض للآخر بدلالته على خالق آخر، وهذا انقسام في الكون، إلا أنه عُلم أن الخالق واحد من وحدة المخلوقات المنتظمة في ناموس كلي واحد، إذ أن ''الأحدية'' في تجلياتها الكونية دليل قاطع على ''الواحدية''.[48]

وقد عرف بديع الزمان أن هداية الناس وإرشادهم نحو القيام بدور إيجابي تكمن في تخليصهم من الشبهات والأوهام والانحرافات الفكرية، فمعروف أن النفس البشرية لا يمكن أن يردعها رادع عن إتيان الشر سوى الترهيب بعواقب فعلته، كما لا يمكن أن يحثها شيئ على فعل الخير سوى الترغيب في نتائج وجزاء عمله، ولا سبيل يبلغ بالإنسان إلى هذ المقصد سوى اعتقاده بوجود خالق واحد للكون.

المبحث الثاني: أولويات الإصلاح الإجتماعي عند النورسي

إن الحديث عن الإصلاح الإجتماعي لدى النورسي واختصاره في إطار بحث صغير يعد أمراً صعباً إلى حد كبير، إذا أردنا أن نعطي المسألة حقها ولا ننقص منها، نظراً لسعة المسألة وديمومتها في حياة النورسي العملية والفكرية –مؤلفاته–، إذ أن كثرة مواقفه العملية الإيجابية في سيرة حياته المباركة، إضافة إلى سعة أفكاره ونظرياته البناءة في رسائله، تجعل من انتقاء بعض المواقف والأفكار منها وجمعها في صفحات معدودة محتاجة إلى تعمق واسع وجهد كبير، إلا أن محاولة تحديد بعض المواقف والأفكار وحصرها على الجانب الاجتماعي يمكن أن يسهل الأمر (بعض الشيء) على باحث مبتدئ قليل الخبرة في رسائل النور.

وجدير بالذكر أن جميع ما اهتم به الأستاذ من أمور اجتماعية مضاءة بنور القرآن الكريم ونابعة من فيضها أو معطرة من عطر السنة النبوية الشريفة، وليس من قبيل المبالغة إذا قلنا أنه ''رحمه الله'' ضحّى بعمره المبارك وبجميع ملذات حياته من أجل تحقيق هذه المقاصد الجليلة، وعمل جاهداً ''قولاً وفعلاً'' من أجل صلاح المجتمع وفوز أفراده بسعادة الدارين.

وللحديث عن أولويات الإصلاح الاجتماعي عند النورسي، رأى الباحث تقسيم المبحث إلى ثلاثة مطالب كالآتي:

المطلب الأول: إحياء الروح المعنوية لدى الفرد والمجتمع

أعطى بديع الزمان الأولوية لتربية أفراد المجتمع على حب الله ورسوله وجعل من هذه النقطة منطلقا لإصلاح علاقة الناس بربهم لأن بها يتعلم الفرد أن يفكر إيجابيا وهذا التفكير الإيجابي يرجع عليه دائما بالطمأنينة في النفس والراحة في الحياة ويطور فيه الروح المعنوية التي هي أساس كل عمل صالح، ويبعده عن الشعور باليأس والإحباط الذين هما دائما أساس كل شر.

وقد وجد بديع الزمان هذه الحكمة من نور قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، آل عمران:٣١ ''في هذه الآية

الكريمة ايجاز معجز، حيث إن معاني كثيرة قد اندرجت في هذه الجمل الثلاث: تقول الآية الكريمة: ان كنتم تؤمنون بالله، فانكم تحبونه، فما دمتم تحبونه فستعملون وفق ما يحبه، وما ذاك إلا تشبهكم بمن يحبه.. وتشبهكم بمحبوبه ليس الا في اتباعه، فمتى ما اتبعتموه يحبكم الله، ومن المعلوم انكم تحبون الله كي يحبكم الله. (...) لذا يصح القول: ان أسمى مقصد للانسان واعلاه هو ان يكون اهلا لمحبة الله.. فنص هذه الاية يبين لنا ان طريق ذلك المقصد الاسنى انما هو في اتباع حبيب الله والاقتداء بسنته المطهرة''.[49]

ومسألة حب الله ورسوله مرتبطة بالإيمان والإسلام، فلا يحبهما من لم يسلم ولم يؤمن بوحدانية الله وبجميع رسله، ولا يقدم على فعل الفضائل بل لا يؤمن بما هو مقدس أصلا في الحياة الاجتماعية من ليس له إيمان، لهذا فإن المسلم المحب المطيع لله ورسوله عنده خشية المراقبة والمحاسبة والمحاكمة، يقوم بأداء واجباته تجاه نفسه ومجتمعه وبيئته ولا يعتدي على حقوق غيره، لأنه يدرك أن ما أتيح له من إمكانيات وكلف بها من مسؤوليات فهي مقابل استخلافه في الأرض، وهذا الشعور يردعه عن الأمور السلبية ويدفعه نحو القيام بفضائل الأعمال، وفي أضعف الحالات فإنه إن لم يبادر إلى فعل الخير فإنه لا يُقْدم على فعل الشر، إذن فعدم فعل الخير أمر سلبي، وعدم فعل الشر أمر إيجابي، والمعلوم أن الإيجابية أحسن من السلبية، لهذا فإن المسلم في نظر النورسي ليس خيرا لنفسه فقط بل هو نعمة وخير لمجتمعه وأولياء أموره، لأنه بهذه الصفات يكون سهل الإدارة والتنظيم ولا يكون عبئاً على غيره: ''ان الاسلام لايقاس بغيره من الاديان، لان المسلم اذا انخلع عن الاسلام فلا يؤمن بعدُ بأيّ نبي آخر، بل لا يقرّ بوجوده تعالى، بل لايعتقد بشئ مقدسٍ اصلاً، ولا يجد في وجدانه موضعاً ليكون مبعث الفضائل. اذ يتفسخ وجدانه كلياً. (...) فاي مصلحة ياترى يجنيها اهل البدعة -هؤلاء، بل الاصوب اهل الالحاد- في الخروج على الدين؟ فان كانوا يرومون منه أمن البلاد واستتباب النظام فيها، فان ادارة عشرة من الملحدين السفلة الذين لايؤمنون بالله، ودفع شرورهم أصعب بكثير من ادارة ألف من المؤمنين. وان كانوا يرغبون في الرقي الحضاري، فان امثال هؤلاء الملحدين مثلما يضرون بادارة الدولة فهم يعيقون التقدم ايضاً؛ اذ يخلّون بالامن والنظام، وهما اساسا الرقي والتجارة. وفي الحقيقة هم مخرّبون بمقتضى مسلكهم. وان أحمق الحمقى في الدنيا هو من ينتظر من امثال هؤلاء الملحدين السفهاء الرقي وسعادة الحياة''.[50]

إذن فإن مسألة إصلاح علاقة الناس بربهم مسألة عبودية، ومسألة حب الله ورسوله مسألة انتساب، فيعز العبد بالانتساب إليه تعالى ويتخلق في الأرض بأخلاق الصلاح،

حيث يعبد ربه بمعاملة الناس والسعي في حوائجهم صلاحا وإصلاحا، وهذه التربية القرآنية تنعدم معانيها في غير مجتمع العابدين، ولا يمكن تصورها في التربية الفلسفية، لأن الاحتكام إلى العقل الفلسفي لا يورث إلزاما ولا التزاما، مادام القلب لا يستجيب بشكل وجداني لعاطفة المحبة، التي هي سر التحولات الخلقية في الإنسان، تماماً مثلما تحولت قبائل العرب من بداوتها المتوحشة إلى أستاذية عالمية في درس الأخلاق، والتربية القرآنية تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا سهل الانقياد، وسهل الإدارة لما له من قابلية تعبدية، ولما له من رغبة في التقرب إلى الله، بالانضباط الخلقي والالتزام التلقائي لحدود الله،[51] وبهذا المنطق تحدث بديع الزمان قائلا: ''كان الانسان في السابق يتحرك في ميدان محدود وضيق جداً، رغم إستعداداته غير المتناهية، حتى انه كان يعيش عيش حيوان مع كونه إنساناً. لذا تدنت افكاره وضاقت اخلاقه بنسبة محدودية تلك الدائرة. فإذا ما عاشت الآن هذه الحرية الشرعية العادلة ولم تفسد، فستكسر اغلال فكر الانسان، وتحطم الموانع الموضوعة امام استعداده للرقي، فتوسع ميدان حركته سعة الدنيا كلها. حتى ان قروياً مثلي يستطيع ان ينظر الى ادارة الدولة التي هي في اوج العلا كالثريا، ويربط نوى الاماني والاستعدادات هناك. وحيث ان كل فعل وطور يصدر يلقى صداه هناك، لذا ستتعالى همته كالثريا وتتكامل اخلاقه بالدرجة نفسها، وتتوسع افكاره بقدر سعة الممالك العثمانية''.[52]

المطلب الثاني: الجهود المضنية لنشر روح التسامح في مقابل استعمال القوة

إن رسائل النور كتبت في زمن إشتد فيه النكاية بالإسلام والكيد بالمسلمين ومضايقتهم، فإلى جانب نشر الأفكار الهدامة وضرب أسس الإيمان عند المسلمين، زاد عليهم الضغط أضعاف ذلك بمنع الشعائر الإسلامية، والأسلوب الخطابي في رسائل النور يراعي هذا الوضع الحرج بدقة وذكاء فائقين، إذ يهتم بنشر الحقائق والتوعية الإيمانية والرد على الشبهات المثارة، دون إعطاء أية ذريعة للسلطة الحاكمة آنذاك لمنع انتشار الرسائل، على الرغم من تعرضها لخلق مشاكل تكاد لا تحصى، هذا وبالإضافة إلى مئات المحاكمات لصاحب رسائل النور وطلابه وسجنهم ونفيهم المستمر إضافة إلى ذلك إهانتهم ومحاربتهم، إلا أن تلك المحاولات كلها لم تمنع رسائل النور من الانتشار، كما لم توقف مسيرة بديع الزمان الإصلاحية، ولم تقدر على تحويل هذه الحركة الإيجابية إلى جماعة انتقامية تتبنى العنف أو القتل كردّ فعل على ما لاقوه من السلطات الحاكمة من بطش وعذاب، بل كلما زاد الضغط على بديع

الزمان كلما زاد حرصه على تهدئة العواطف والتمسك بحفظ الأمن والسلم الاجتماعي، فهو ''رحمه الله'' تحقق لديه أن حفظ الدين وصلاح العباد مرهون بأمن وبسلامة المجتمع، والعنف لا يثمر شيئاً، بل يفسد ويهلك الحرث والنسل والله سبحانه وتعالى لا يحب الفساد ولا يرضى به، ويقول: ''انه بسبب التعصب العنصري والانانية التي نشأت في هذا العصر العاصف من المدنية الغادرة، والدكتاتورية العسكرية التي اعقبت الحرب العالمية، وما افرزته الضلالة من القسوة وعدم الرحمة، ساد اشد انواع الظلم واشد انواع الاستبداد، بحيث لو قام اهل الحق بالدفاع عن حقوقهم بالقوة لأصاب الكثير من الابرياء والضعفاء اشد الظلم نتيجة الحيدة عن العدل، فيبقى هؤلاء مغلوبين على امرهم يقاسون اشد انواع الظلم. ذلك لان الظالمين الذين تدفعهم النوازع المذكورة آنفاً لايترددون ابداً في مدّ يد الاذى والبطش والظلم بعشرين او ثلاثين من الابرياء ويؤاخذونهم بجريرة او خطأ شخص او شخصين باسباب واهية ومعاذير شتى. فلو قام اهل الحق بضرب ذلك الموضع في سبيل الحق والعدل لأعطوا خسارة بمعدل ثلاثين الى واحد. ولو قاموا باتباع القاعدة الظالمة المتمثلة بالمقابلة بالمثل وبطشوا بعشرين او ثلاثين شخصاً مأخوذين بجريرة واحد او اثنين من الظالمين لاقترفوا -باسم الحق وتحت شعاره- ظلماً عظيماً وشنيعاً''.[53]

نعم إن الإسلام بحاجة إلى بيئة يسودها السلام والوئام ليعلو كلمته، والدعوة الإسلامية بأمس الحاجة إلى مجتمع مسالم ومستقر ليعطي مفعولها وثمارها، لهذا نجد سعي النورسي جاهداً لخلق هذه البيئة، وقد تمكن من تحقيق هذا المقصد، إذ نجح في بناء أجيال من طلابه الذين تربوا على هذا الأساس تربية ثابتة وصحيحة، يقول ''رحمه الله'': (لقد ورد الى القلب: انه حيال اهانتنا والاستخفاف بنا بحجة اخلالنا بالامن العام، (...) في الوقت الذي تنشط الفوضى والارهاب المتستّر بستار الشيوعية للاخلال بالأمن العام، فان طلاب رسائل النور يقفون ذلك الإفساد المرعب، في جميع ارجاء البلاد ويكسرون شوكته بقوة الايمان التحقيقي، ويسعون حثيثاً لإحلال الأمن والنظام مكان الخوف والفوضى. فلم تظهر في العشرين سنة السابقة أية حادثة كانت حول اخلالهم بالأمن، رغم كثرة طلاب النور وانتشارهم في جميع انحاء البلاد، فلم يجد ولم يسجل عليهم أحد من الضباط المسؤولين حدثاً، في عشر ولايات وعبر حوالي اربع محاكم ذات علاقة، بل لقد قال ضباط منصفون لثلاث ولايات: ''ان طلاب النور ضباط معنويون للأمن في البلاد، انهم يساعدوننا في الحفاظ على الامن والنظام لما يجعلون من فكر كل من يقرأ رسائل النور بالايمان التحقيقي حارساً ورقيباً عليه فيسعون بذلك للحفاظ على الأمن العام''.

وسجن ''دنيزلي'' مثال واضح ونموذج جيد لهذا الكلام، فما ان دخل طلاب النور ورسالة ''الثمرة'' التي كتبت للمسجونين حتى تاب اكثر من مائتي سجين وتحلّوا بالطاعة والصلاح، وذلك في غضون ثلاثة أشهر أو تزيد. حتى أن قاتلاً لأكثر من ثلاثة اشخاص كان يتحاشى أن يقتل (بقة الفراش). فلم يعد عضواً لايضر، بل اصبح نافعاً رحيماً للبلاد.[54]

ويلاحظ أن هذه القناعة لم تأت من ضعف وقلة عدد وبأس، بل كانت قاعدة راسخة مستنبطة من نور القرآن الكريم: ''نعم، إن في مسلكنا قوةً، إلّا أننا لم نقم باستعمالها إلّا في تأمين الأمن الداخلي. لذا قمت طوال حياتي بتحقيق الأمن الداخلي اتباعا لدستور الآية الكريمة: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾الإسراء:١٥ (أي لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة أخيه أو أحبائه). إن هذه القوة لا يمكن استعمالها إلّا ضد الهجمات الخارجية. إن وظيفتنا -وفق دستور الآية الكريمة المذكورة- هي الإعانة على ضمان الأمن الداخلي بكل ما نملك من قوة''.[55]

وقد كان بإمكان بديع الزمان ان ينطلق بثورة إسلامية في عصره وخاصة الأزمنة التي تعرض فيها للظلم والسجن والنفي على يد الحاقدين على الإسلام، حيث إن الإنسان في هذه الأوقات التي يتعرض فيها للظلم والقهر على أتم الاستعداد من الناحية النفسية لتبني مواقف معارضة وثائرة، وكان بإمكانه جمع عدد كبير من المناصرين حوله، وخلق ثورة تضايق السلطة الحاكمة، ولو استشهد آنذاك -على حد هذه الفرضية- كان خيراً له شخصيا أمام الله للفوز بدرجة الشهادة في سبيل الله، من أن يتوفى على فراش المرض، ولكن لِمَ لَمْ يقم بذلك مع أنه كان عالما ومعلما ومناضلا وأعرف منا بأمور الجهاد والشهادة في سبيل الله؟ والجواب من منظور الباحث هو أن الأستاذ لم يكن يفكر في سعادة نفسه دون سواه، بل كانت الأولوية عنده خير وسعادة أبناء مجتمعه البشري كافة والمسلمين خاصة، فهو ''رحمهُ الله'' ضحّى بكل ما يملك من أجل راحة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية.

المطلب الثالث: تشخيص الأمراض الاجتماعية وتحديد العلاج المناسب لها

لقد وجد بديع الزمان نفسه في عصر ومجتمع عرف عنهما بالتخلف والفقر وانتشار الكثير من الأمراض الاجتماعية التي فتكت ببنيتهما، حيث أبتلي المجتمع بتفشي الأمراض المعنوية بين أفراده كاليأس والكذب ومحبة العداوة والبغضاء والاختلاف، والأنانية، التي تتجلى في اختيار المنافع الشخصية وتفضيلها على المنفعة

العامة، الأمر الذي مهّد لتقوية نفوذ الأعداء وتسرب الأفكار الهدامة داخله إلى عقول أبنائها بيسر وسهولة.[56]

وعرف بديع الزمان بفضل ما أوتي به من علم وحكمة، أن الأعداء متربصة بالمجتمع البشري على الدوام وتريد تحطيمه وتمزيق القيم والروابط الاجتماعية والمثل الأخلاقية فيها من خلال نشر أوبئة وأمراض مختلفة يمكن أن تقلعها من جذورها، فتنبه باكراً إلى تلك الأمراض وسعى جاهدا لإيجاد العلاج الفوري والمناسب لها، فحارب الجهل بكسب العلم أولاً لنفسه وثانياً لنشرها بين أفراد المجتمع، ومع أنه قبل بالفقر لنفسه كابتلاء وامتحان إلا أنه واجهه بعزة النفس وعدم قبول الهدايا والمكافئات أو الزكاة والصدقات مع أنه كان يستحقها دون أدنى شك، كما حارب الفقر في المجتمع بحثّ الناس على التعاون فيما بينهم والتذكير بفضل الصدقة ومساعدة الفقراء والمحتاجين من جانب وتنبيه الحكومة من إعانة المحتاجين كونها المسؤول الأول عنهم وعن توفير العيش المناسب لهم من جانب آخر، كما اهتم ببث روح التسامح في مقابل الحقد وحب الخير للغير في مقابل الأنانية.

وقد ركز هذا الإمام الفاضل جل اهتمامه -بعد كسبه العلوم الشرعية وتعلم العلوم الكونية الرائجة في زمانه- على خدمة مجتمعه بمقاومة الجهل والتخلف وأعطى الأولوية لنشر العلم والمعرفة بين أفراد المجتمع إنطلاقا من أنوار الآيات القرآنية الكثيرة التي تحضّ الناس على التفكير وتؤكد على التعلم، حيث أن أول آية نزلت من القرآن أمر النبي ﷺ بالقراءة والتعلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾،[العلق:١-٥] وكم من توكيد وتكرار لقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾،[البقرة:٢١٩،٢٦٦] وقوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾،[الزمر:٤٢/والروم:٢١/والرعد:٣/والجاثية:١٣] وغيرها من الآيات: ﴿تتفكرون وتعقلون ويعقلون...﴾، إذ يفهم من ذلك كله أنه سبحانه وتعالى أوجب التعلم والتفكر على عباده.

لهذا كان بديع الزمان يرى في المعرفة خير الدنيا وسعادة الآخرة، إذا كان مقترنا بالدعاء والعبادة، لأن المعرفة الشاملة قائمة على ما أودع في الإنسان من خصائص شاملة ترفعه إلى أعلى درجات المعرفة والقرب من الخالق عز وجل:[57] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر:٢٨] والتفكير من الأساسيات التي نظر إليه النورسي من حيث كونه أداة فعالة بيد الإنسان ليجد بها نفسه ويعرف من خلالها مكانته الواقعية في الكون، وجعله من الأساليب التربوية لطلابه ودربهم عليه، إذ رأى

فيه فحسب السبيل الوحيد للإنسان ليكتسب به صفة ''الإنسانية الحقة'' التي بها تأهل للاستخلاف في الأرض وبها نال التكريم، ويكتسب هذه الصفة بإنخراطه في وظيفة ''الإنسانية''، ويفقدها بالعصيان والتمرد، وبذلك جعل من التفكير أداة فعالة للإنسان نحو القيام بالعمل الإيجابي.[58]

وقد عانى النورسي كثيرا لأجل تحقيق هذا المقصد العظيم منذ سلطة الخلافة العثمانية حتى توفاه الله ''رحمهُ الله'' كما واجه الاعتقالات والمحاكمات بسبب حرصه الشديد على نشر المعرفة وتثقيف المجتمع، فعندما استطاع مقابلة السلطان عبدالحميد كان طلبه الوحيد تحقيق العدالة والإهتمام بنشر العلم خاصة في موطنه الذي نشأ فيه حيث كان يعاني بلده من مرضين فتاكين ''الجهل والفقر''.[59]

ونظرا لكون ''الرسائل'' السبيل الوحيد الذي وجد فيه بديع الزمان ضالته لنشر المعرفة وتثقيف الناس، فإنه لم يسلم أيضا من الملاحقة والممانعة خاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية ووصول كمال أتاتورك إلى السلطة، فقد مُنع بداية اللغة العربية والكتابة بحروفها، وسرعان ما وجد بديع الزمان البديل والحل باستعمال اللغة والحروف المسموحة بها دون توقف ولا تلكؤ، وعندما منع الرسائل من الطباعة والنشر بعد خوض مئات المحاكمات، كذلك كان الحل موجودا لديه ''رحمه الله'' بالطباعة والكتابة يدويا والنشر سريا، إذن فالإيجابية عمّ جميع مناحي حياة هذا العالم وشمل كل توجهاته وأفكاره.[60]

وتبنى بديع الزمان في مدرسته الفكرية والتربوية مبدأ ''المجاهدة'' لإصلاح النفس وهي بمثابة حرب يخوضها الإنسان مع نوازعه الشريرة على المستوى الباطني والنفسي، ويقصد به مواجهة عدوى فساد الأخلاق كالحقد والأنانية وغيرهما، والانخراط في صراع مع الشهوات الحيوانية، التي تثور في نفسه، وتريد أن تنحرف به عن فلكها السيار مستقيما على نظام القرآن الدائر على محورها النموذجي في كمال الأخلاق: الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ.

حيث قال الأستاذ ''رحمهُ الله'' في بيان ما ينبغي أن تكون عليه (جمعية) تأسست في زمانه وتسمت باسم ''الاتحاد المحمدي'':[61] ''فجمعية مثل هذه.. رئيسها هو فخر العالمين سيدنا الرسول الكريم ﷺ. ومسلكها ومنهجها؛ مجاهدة كل شخص نفسه اي التخلق باخلاق الرسول الكريم ﷺ واحياء السنة النبوية ومحبة الآخرين واسداء النصح لهم''.[62]

فهو ''رحمهُ الله'' لم يحمل الحقد حتى لمن آذوه وسبّبوا له أشدّ المعاناة طوال حياته، وأراد من طلابه أن يكونوا على نفس الطريقة النبوية التي تشفق على الذين لم يهتدوا بهداية الإسلام بدل الحقد والضغينة، بل تجاهد وتدعوا على الدوام من أجل هدايتهم وخلاصهم.

لقد انطلق الأستاذ النورسي في رسم طريق المجاهدة الأخلاقية من مبدأ تفكري استقرائي في تشخيص أصل الأمراض الخلقية كلها، وهو رجوعها جميعا إلى غرق الإنسان في مشاهدة (الأنا) الذاتية التي تسكنه بصورة تعميه عن مشاهدة أي شيء سواها إلا من خلالها، فتنشأ بباطنه رغبة آثمة لتوظيف كل مصالح الإجتماع البشري لصالحه فقط، ولا عليه بعد ذلك أن يهلك الآخرون،[63] قال (رحمه الله): ''لو تأملت في مساوئ جمعية البشر لرأيت: اس اساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الاخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية، كلمتين فقط: احداهم: إن شبعتُ فلا عليّ ان يموت غيري من الجوع. والثانية: إكتسب انت لآكل أنا، واتعبْ انت لأستريح انا''.[64]

وقد انطلق بديع الزمان إلى علاج هذا الداء الخلقي العضال الذي يمكن اعتباره مصدرا لكثير من الأمراض الخلقية الأخرى ومسببا لها، بتحديد طريق التخلص من سيطرة ''الأنا'' على الإنسان، وترقيته بمدارج الصلاح الخلقي بصورة تحقق له توازنا فطريا وكمالا حقيقيا، وذلك من خلال المعراج القرآني الذي رأى فيه الصيدلية الكبرى الجامعة لأدوية جميع الأمراض والعاهات، قائلا: ''ان الحياة حركة وفعالية، (...) اذا بـ''اليأس'' أول ما يصادفها، (...) فعليكم ان تضربوه بسيف الآية الكريمة: ﴿لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾الزمر:٥٣ ثم يشن ''حب الظهور وميل التفوق'' هجومه، (...) فعليكم ان تبعثوا اليه حقيقة الآية الكريمة: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾النساء:١٣٥ ثم يبرز الى الميدان ''الاستعجال'' فيُزلّ قدم الهمة (...) فعليكم ان تحتموا منه بالخندق الأمين للآية الكريمة: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾.آل عمران:٢٠٠ ثم يتصدى لها ''الرأي الشخصي'' المستبد والتفكير الانفرادي الذي يبدد اعمال الانسان، رغم انه مكلّف بفطرته رعاية حقوقه ضمن رعايته لحقوق الآخرين.. فعليكم ان تصدوه بالحقيقة الشامخة في الحديث الشريف: ''خير الناس انفعهم للناس''.[65] (...) ثم يلوح العدوّ الغدّار وهو: ''التسويف'' الناجم من العجز وفقدان الثقة بالنفس، (...) فعليكم الاقتداء بسر الآية الكريمة: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.آل عمران:١٢٢ على الله لا على غيره. (...) واخيراً يُقبل ''حب الراحة والدعة'' الذي هو أم المصائب ووكر الرذائل فيصفّد الهمة الكريمة بسلاسله واغلاله ويقعدها عن طلب معالي الامور ويقذفها في هاوية السفالة

والذلة.. فعليكم ان تُخرجوا على ذلك السفاح الساحر، البطل المجاهد في الآية الكريمة: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾. النجم:٣٩ 66

ويقول أيضا: (ان اهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا ''أنا'' فهو يجوب بهم في وديان الضلالة. فأهل الحق لايستطيعون خدمة الحق إلاّ بترك ''أنا'' وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم ''أنا'' فعليهم تركه، لئلا يشبهوا أولئك، اذ يكونون موضع ظنهم انهم مثلهم يعبدون النفس. لذا فان عدم ترك ''أنا'' بخس للحق تجاه خدمة الحق. زد على ذلك ان الخدمة القرآنية التي اجتمعنا عليها ترفض ''أنا'' وتطلب ''نحن''، فلا تقولو:أنا! بل قولوا: نحن.

ولاشك انكم قد اقتنعتم ان أخاكم هذا الفقير لم يبرز الى الميدان بـ ''أنا''، ولا يجعلكم خداماً لأنانيته، بل اراكم نفسه خادماً للقرآن لايملك انانية، فليس هو الا قد اتخذ كما بيّنه لكم - مسلك عدم الاعجاب بالنفس وعدم موالاة ''أنا''، فضلاً عن انه قد اثبت لكم بدلائل قاطعة ان الآثار والمؤلفات المعدّة لافادة الناس كافة هي ملك الجميع، اي انها ترشحات من القرآن الكريم لايسع أحد ان يتملكها بأنانيته''.[67]

الخاتمة

في ختام هذا البحث حول فقه الأولويات عند بديع الزمان ومنهجه في الإصلاح الديني والاجتماعي، يمكن استخلاص بعض الاستنتاجات، من أهمها:

١- إن بديع الزمان سعيد النورسي واحد من كبار رواد الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي عامة وفي تركيا خاصة، ويعد مشروعه التجديدي والإصلاحي امتدادًا وتكميلًا لما بدأه غيره ممن سبقوه أو عاصروه من العلماء المجددين الكبار.

٢- مبدأ الأولويات عند النورسي منهج في الدعوة والتبليغ والتربية والإصلاح، واستمد هذا المبدأ من القرآن الكريم والهدي النبوي، وفي ضوئه عامل مع الحوادث والمستجدات ووضع كل شيء في مرتبته بالعدل.

٣- أساس العمل الإصلاحي الناجح عند النورسي يتمثل في عمل العالم بعلمه، وموافقة أقوال الداعية مع أفعاله، وعدم مخالفة المربي لمباديء تربيته.

٤- آمن النورسي بالعمل الإيجابي البناء، وتبناه في مشروعه الإصلاحي، ومن أبرز سمات الإيجابية، المزج بين عقيدة التوحيد والحياة الاجتماعية، أي توظيف الإصلاح الديني كوسيلة للإصلاح الاجتماعي.

٥- فرضت حركة النور نفسها على المجتمع التركي بقوة، كما شمل تأثير أفكارها الكثير من بلدان العالم، بسبب تبني النهج الإصلاحي الشامل والإيجابية في جميع مناحي الحياة.

٦- الهدف الرئيس من مشروع النورسي الإصلاحي إنقاذ الإيمان، وتثقيف الناس بالإسلام الحقيقي والقضاء على الجهل والاستبداد.

* * *

مصادر البحث ومراجعه

رسائل النور

١- الكلمات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤.
٢- المكتوبات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤.
٣- اللمعات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤.
٤- الشعاعات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤.
٥- المثنوي العربي النوري: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤.
٦- صيقل الإسلام: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤.
٧- ملحق قسطموني: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤.
٨- السيرة الذاتية: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤.

المصادر الحديثية واللغوية

١- صحيح البخاري: محمد بن اسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، ط٣.
٢- جامع الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١.
٤- لسان العرب: ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
٥- النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

المراجع الفقهية والفكرية

١- أسلوب الإرشاد في القرآن: نيازي بكي، المؤتمر الدولي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي "نحو فهم عصري للقرآن الكريم –رسائل النور نموذجاً"، ١٩٩٨.
٢- جامع الرسائل: ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار المدني للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٤.
٣- فقه الأولويات: محمد الوكيلي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٧.
٤- فقه الأولويات: يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦.
٥- مفاتح النور: فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١٠.
٦- نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٠.

* * *

الهوامش

[1] مدرس بجامعة السليمانية/ كلية العلوم الإسلامية/ قسم الفقه وأصوله.

[2] ينظر: لسان العرب: ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج٦، ص٤٩٢١.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه وأمه ٦٢٦٦و ٦٧٣٥). صحيح البخاري: محمد بن اسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، ط٣، ج٣، ص١٣٦٢.

[4] ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج٥، ص٢٢٩.

[5] في فقه الأولويات: يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦، ص٩.

[6] ينظر: فقه الأولويات: محمد الوكيلي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٧، ص١٢.

[7] جامع الرسائل: ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار المدني للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٤، ج٢، ص٣٠٥.

[8] الحديث رواه الترمذي وأبو داود والبيهقي وغيرهم عن أبي الدرداء، وتفصيله: ''مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ''، ينظر: جامع الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص٩٩٥. رقم الحديث ٢٦٢٥''.

[9] السيرة الذاتية: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤، ص٣٦٢.

[10] يراجع: نظرة عامة عن حياة بديع الزمان سعيد النورسي: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٠، ص٣٠-٣١، ٨٩،٩٣،١٠٧.

[11] ينظر: أسلوب الإرشاد في القرآن: نيازي بكي، المؤتمر الدولي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي ''نحو فهم عصري للقرآن الكريم –رسائل النور نموذجاً''، ١٩٩٨، ص١٩٧.

[12] ينظر: أسلوب الإرشاد في القرآن: المرجع السابق، ص٢٠٢.

[13] الكلمات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤، ص٢٩٧.

[14] المكتوبات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤، ص٩١.

[15] ينظر: نظرة عامة عن حياة بديع الزمان، ص١٢٩.

[16] الملاحق- ملحق قسطموني: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤، ص٩٩.

[17] نظرة عامة عن حياة بديع الزمان، ص٢١.

[18] مفاتح النور: فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة، ط١، ٢٠١٠، ص٢٧٢.

[19] اللمعات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤، ص٣٥٧.

[20] اللمعات: ص٢٥٦.

[21] ينظر: مفاتح النور، ص١٢٠.

[22] الكلمات، ص٤١٦.
[23] المثنوي العربي النوري: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤، ص٢٧٣.
[24] ينظر: مفاتح النور، ص١١٥-١١٦.
[25] اللمعات، ص١٢.
[26] ينظر: مفاتح النور، ص١٤٢.
[27] صيقل الإسلام: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤، ص٤٨٨.
[28] ينظر: مفاتح النور، ص٣٢٤.
[29] الكلمات، ص١٤٢.
[30] متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب (دعاؤكم إيمانكم)، ومسلم في كتاب الإيمان باب (بيان عدد شعب الإيمان)، صحيح البخاري: المصدر السابق، ج١، ص٨. صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، ج٢، ص٥.
[31] ينظر: مفاتح النور، ص٤٦-٤٧.
[32] ينظر: مفاتح النور، ص٣١.
[33] المكتوبات، ص٢٧.
[34] يراجع: مفاتح النور، ص٢٧-٢٨.
[35] المكتوبات، ص٥٦٣.
[36] ينظر: نظرة عامة عن حياة بديع الزمان، ص١١٥-١١٦.
[37] الملاحق-ملحق قسطموني، ص١٨٩.
[38] نظرة عامة عن حياة بديع الزمان، ص١٤٠.
[39] سيرة ذاتية، ص٥٢٨.
[40] ينظر: مفاتح النور، ص٥٠.
[41] الكلمات، ص٥٤٩.
[42] الكلمات، ص٨.
[43] صيقل الإسلام، ص٤٦٥.
[44] ينظر: مفاتح النور، ص٦٨.
[45] صيقل الإسلام، ص١١٢-١١٣.
[46] الكلمات، ص٥٥٢.
[47] الكلمات، ص٥٥٢.
[48] ينظر: مفاتح النور، ص١٦٦،١٦٨.
[49] اللمعات، ص٨٢.
[50] المكتوبات، ص٥٥٦-٥٥٧.
[51] ينظر: مفاتح النور، ص٣٢٥.
[52] صيقل الإسلام، ص٤٤٢.
[53] الشعاعات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة rnk للنشر، ط٢، ٢٠١٤، ص٣٢٧.
[54] اللمعات، ٣٦٧.
[55] الملاحق، ص٤٠٠-٤٠١.

[56] يراجع: صيقل الإسلام، ص٤٩٢-٤٩٧.
[57] ينظر: مفاتح النور، ص١٣٨-١٣٩.
[58] ينظر: مفاتح النور، ص١٣٧-١٣٨.
[59] يراجع: نظرة عامة عن حياة بديع الزمان، ص٢٠-٢١.
[60] يراجع: نظرة عامة عن حياة بديع الزمان، ص٥٠-٥١.
[61] ينظر: مفاتح النور، ص٣٢٢.
[62] صيقل الإسلام، ص٤١٧.
[63] مفاتح النور، ص٣٢٩.
[64] الكلمات، ص٤٦٩.
[65] حديث حسن أخرجه القضاعي في مسند الشهاب وابن عساكر في تاريخ دمشق، ج٢، ص٤٢٠. (المترجم)
[66] صيقل الإسلام، ص٤٠٦-٤٠٨.
[67] المكتوبات، ص٥٤١.